قيل لي إنهم يعلمون الطفل في إسرائيل أن يلصق شعرة بين دفتي باب خزانته لكي يكتشف هل فتحت الخزانة في غيابه. ولهم في تربيتهم تمارين أخرى عديدة غايتها زرع الحس الأمني وتعزيزه. وتعول أجهزة شرطتهم واستخباراتهم عامة على مبادرات أفراد من الجمهرات الإسرائيلية يقومون حال ملاحظتهم أية حركة مشبوهة حولهم لاسيما في الأحوال الاستثنائية بمهمة المخبرين دون أن يكونوا موظفين لدى مصالح الأمن. وبالإضافة إلى ما ذكرناه عن التربية وآثارها في النفوس، لاشك أن عقلية الخوف وتضخيم الخطر العربي سبب قوي من أسباب هاجس (الأمن) الذي يعشش داخل كل إسرائيلي، والذي يحملهم على اتخاذ أقصى الإجراءات لضمان السلامة. وبعض هذه الإجراءات يبلغ مبلغا من الذعر الباعث على السخرية، كما يحدث هذه الأيام، إذ يبيت سكان المستعمرات الشمالية في الملاجئ، لمجرد أن حزب الله توعد بالرد على الأذى الموجه ضد الفلسطينيين بأذى مقابل. وكذلك تقاطع الجمهرات المستعمرة وسائط النقل العام، وتبتعد عن الأسواق، وتقبع في البيوت تحوطا من عمليات الاستشهاديين في الشوارع والمحال والساحات.

وعلى العكس من ذلك كله مسلك الفلسطينيين. فهم لا يهملون إجراءات الوقاية والدفاع المدني وحسب، وإنما يهرعون مثلا إلى المواقع التي تعرضت لتوها للقصف بينما الدخان متصاعد ما يزال منها، ويندفعون إلى مواطن النجدة دون أن يجشموا أنفسهم مشقة الاستطلاع قبل التحرك. وهم لم يعرفوا في تربيتهم مفهوم الأمن وإجراءاته ومقتضياته.

الاغتيال سياسة رسمية

لا شك أن السبب العميق وراء ذلك هو الإيمان بأن لكل أجل كتابا، وما أصاب المرء لم يكن ليخطئه وما أخطأ المرء لم يكن ليصيبه. ومع ذلك فإن الفهم الصحيح لقضية الإيمان لا يقلل من أهمية الأخذ بالأسباب في كل نشاط. فإنما يكون الإيمان والتسليم بالقضاء والقدر مصاحبا لبذل الجهد وللأخذ بالأسباب. وإذا كان عدونا ماديا عديم الإيمان مبالغا في اعتقاده أن الحذر يغني عن القدر، فعلينا أن لا نكون من جانبنا فاقدين جانب الاحتياط والانتباه والحذر وتقدير الظروف حق قدرها.

أقول هذا بعد أن منيت الساحة الفلسطينية بفقد عدد متصاعد من خيرة القادة، وبعدما صار الاغتيال سياسة يومية رسمية.

فعندما يتذكر المرء ما حدث في الانتفاضة الأولى عام ١٩٧٨، حين اغتالت إسرائيل خيرة القادة الشبان الذين أفرزتهم الانتفاضة، وألقت في السجون بموجات إثر موجات منهم، فلا بد من تذكر الصورة التي نجمت بعد ذلك. لأن الأجهزة المعادية لعبت لعبتها الدموية وفي ذهنها خطة مقصودة جرى تنفيذها على مراحل للوصول إلى الصورة التي نشير إليها.

لقد استمرت الحالة الانتفاضية وسط الجمهور الفلسطيني في الحارات والشوارع والأحياء ولكن مع غياب رؤوسها العاقلة والنقية والشريفة. وهنا زجت الأجهزة الإسرائيلية الشيطانية في العديد من الأماكن بعملائها المحليين ليقودوا مسيرة الانتفاضة كأنهم صعدوا عفوا إلى الواجهة كما صعد غيرهم من قبل. والواقع أن تلك الأجهزة كانت قد ادخرتهم لمثل تلك الأدوار حينما جندتهم وهم في سجونها فأكسبتهم قشرة براقة لتسويقهم

لدى الناس. وهكذا استلم دفة القيادة في العديد من الساحات أو المواقع أو التنظيمات عملاء ملثمون، أمدهم ضباط تشغيلهم بالإمكانيات المناسبة، بما في ذلك السلاح في مرحلة معينة فيما بعد، وراحوا يزودونهم بالتعليمات الإجرامية، بما فيها اغتيال الوطنيين والأبرياء الذين لا ذنب لهم، وتخريب الممتلكات، والاعتداء على الأعراض والمقدسات.

التغافل عن العملاء

وقد كان ينبغي أن يشرع بعض المعنيين، لدى استتباب الأمر للسلطة الوطنية الفلسطينية، باستقصاء الظاهرات والأسرار والأشخاص والخيوط التي تتصل بهذه العملية الكبرى التي قامت بها الأجهزة المعادية واستعانت فيها بخبرات الأمريكيين في مقاومة الثورة الفييتنامية، كما ابتكرت أساليب إسرائيلية أخرى تشكل إضافة لمجلدات ما يسمى: أساليب الثورة المضادة في تخريب الأعمال الجماهيرية الكبرى.

ولكن الذي حدث هو أن السلطة الوطنية عملت وفقا لشعار " عفا الله عما سلف ". ورائدها طبعا هو مراعاة الطبيعة العائلية والعشائرية في المجتمع الفلسطيني. وقد ساعد على قرار التغافل عن العملاء ذلك النص في اتفاق الفترة الانتقالية الذي ألزمت السلطة الوطنية نفسها بموجبه بعدم ملاحقة المتعاونين السابقين مع الاحتلال.

وهنا نقول إننا لا نقوم بهذه المراجعة اليوم لأي سبب غير مواجهة الوضع الراهن خاصة بعد نجاح الاحتلال في الاغتيالات التي قام بها. فليس غرضنا أن ننتقد ولا أن نؤيد ما حدث. غير أن من حقنا أن نستقصي على الأقل الظاهرات الخطيرة التي تعترض مسيرة شعبنا، وأن تكون لنا ملفاتنا التي نرجع إليها في حال كهذا الحال الذي نحن عليه اليوم.

في الانتفاضة الأولى تعمد الاحتلال خلط الأوراق لصالحه، حتى أوصل الناس إلى نوع من التشكك في جدوى الحركة الجماهيرية. وفي هذه الانتفاضة قام بتحريك نفر من أدواته، بينما يقبع غيرهم في انتظار أدوارهم في وقت مناسب لأسيادهم الذين صنعوهم ورعوهم يوما بعد يوم.

يجب أن يتوقف خلط الأوراق، فلا شيء أخطر منه في اللحظة الحاضرة. ونحن واثقون أن الشعب الفلسطيني شعب من الأبطال وأن كتلته الكبرى سليمة وأنها مثال يحتذى بين الشعوب المكافحة. ولكننا يجب أن لا نتحسس من الاعتراف بأن ظاهرة العملاء ليست بسيطة ينفع في معالجتها مجرد توجيه النصح أو التحذير، كما أن التقليل من شأنها أمام أجهزة الإعلام الخارجية حفاظا على الصورة البطولية التي يتمتع بها المجموع في نظر الأشقاء والغرباء يجب أن لا يدفعنا إلى التهوين من أمرها بيننا وبين أنفسنا. إن جاسوسا واحدا، لاسيما إذا توفر له موقع هام، يمكن أن يخرب بلدا وأن يهزم جيشا. وقد صدق المثل القائل: ألف عدو خارج البيت، ولا عدو واحد داخله!

لا جديد في أمريكا

انحياز الولايات المتحدة الأمريكية إلى إسرائيل ليس بالأمر الجديد. ويكفي أن نتذكر المفارقة الغريبة التي حدثت عام ١٩٤٨ بسبب ملابسة أدى إليها الاختلاف في التوقيت بين الشرق والغرب. فاعترفت أمريكا بإسرائيل قبل أن يعلن بن غوريون عن قيامها في تل أبيب. وقد درجت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على انتهاج

سياسة دعم إسرائيل وتقويتها ضد العرب والمصالح العربية.

لكن الجدير بالملاحظة هو أن كل رئيس أمريكي تسلم قيادة الولايات المتحدة منذ ذلك الحين، تفوق على سابقه في هذا الانحياز وفي التعبير عنه دون أن يحسب حسابا للعرب، ودون أن يتخوف على مصالحه النفطية في هذه المنطقة التعسة.

قال أول هؤلاء الرؤساء الذين ساندوا إسرائيل على حساب العرب، ويدعى هاري ترومان: دلوني على أصوات العرب في الولايات المتحدة، لكي أقارن بينها وبين الأصوات اليهودية!

ولم يشذ عن هذه القاعدة أحد منهم فيما بعد. كلهم ذرائعيون مستعدون لعقد أية صفقات لصالح الوصول إلى كرسي الرئاسة أو التجديد فترة أخرى ولو على حساب مصالح لوطنهم قد تصبح في مهب الريح. إنها التربية اللعينة، التي تجعل الربح في مقام فوق أعلى المقدسات، والتي لا تبالي بالحقوق ولا تتوانى عن الدوس على البشر.

ولما كان اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة قد شدد قبضته على مفاتيح العملية الانتخابية بصورة مطردة، واشترى معظم وسائل الإعلام هناك، ودس رجاله في مراكز القوة والقرار عبر عملية متدرجة دؤوب طويلة الأمد، فإن مواسم الانتخابات الرئاسية الأمريكية شهدت دائما تلك المباريات والمنافسات الحامية بين المرشحين في التقرب من إسرائيل والتمرغ تحت أقدام اللوبي الصهيوني إلى درجة مخزية.

ووسع اللوبي الصهيوني مجال عمله ليشمل الانتخابات النيابية بالإضافة إلى الرئاسية. وأصبح عدد متزايد من أعضاء الكونغرس بمجلسيه عملاء تحت الطلب لأصغر مسؤول إسرائيلي، يدافعون عن أشد ممارسات إسرائيل دفاع المستميت. حتى إن يتسحاك رابينوفتش الشهير بيتسحاك رابين رفض أن يوافق عندما كان سفيرا لإسرائيل في الولايات المتحدة على قبول ضمانات رئاسية من ريشارد نيكسون لإمداد إسرائيل بالأسلحة عن طريق الإدارة دون أن تمر الصفقات بالكونغرس. وتكرست سياسة إسرائيلية تستقوي بالكونغرس على الرئيس كلما مال إلى ممارسة أقل القليل من التوازن في سياسة الولايات المتحدة في منطقتنا.

وباسم الديمقراطية تقود الولايات المتحدة نفسها نحو معاداة العرب والمسلمين الذين لايقلون عددا عن الصينيين، والذين تدين الولايات المتحدة لنفطهم برفاهها وقوة عملتها.

فلا غرابة أن يتقدم جورج بوش الابن على كل من سبقه في أن يكون صوت أسياده. ومن قبله خاطب أبوه أحد الحكام العرب الحلفاء أيام حرب الخليج قائلا له: " أنتم لا تملكون النفط، ولكنكم تجلسون عليه فقط ". وخاطب وزير خارجية أمريكا جيمس بيكر وهو في بعض بلدان الخليج متسائلا بسخرية:" هل ما زال الجماعة عندك يغسلون أقفيتهم خمس مرات في اليوم "؟!

لكن الغريب بعد ذلك كله أن الحجة الصهيونية التي يسوقها الهماسون الصهيونيون في آذان الرؤساء ورجال السياسة الأمريكيين عامة، حين يقولون لهم إن العرب لن يستفيقوا ولن يأتوا بحركة مهما نالهم من ضيم، انطبقت حتى الآن على هؤلاء الذين اخترقهم الأمريكيون والإسرائيليون من بطونهم وفروجهم وأبنائهم الفالتين وأرصدتهم في البنوك!!!